المنهج الوحدوي للإمام كاشف الغطاء

كلمة التّوحيد، وتوحيد الكلمة

الشيخ محمّد جاسم الساعدي

مقاربة الباحث الإسلامي الشيخ محمّد جاسم الساعدي، لمنهج الإمام الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء (ت ١٣٧٣ هجريّة) حول الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلاميّة، تكشف موقع هذه المَنهجيّة التأسيسيّة للمساعي الرّاهنة لتحقيق وحدة المُسلمين في مواجهة أخطار الفتنة والتّنازع، والغزو الإستعماري.

لا يخفى دور رجال الإصلاح وروّاده في نشر الفكر الوحدوي والإصلاحي في الأوساط الفكريّة والثقافيّة الإسلاميّة على أكثر من مستوى. ومن أبرز هؤلاء الكبار الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء. فهو تميّز بنبوغه ونشاطه العلمي، وكان يتمتّع بالذكاء الحادّ والألمعيّة الوقّادة، وحصل على قسطٍ وافرٍ من العلم والفضل، وكرّس ذلك في خدمة الإسلام والمسلمين، ولا سيّما في ميدان الوحدة والتقريب.

في دعوته إلى الوحدة يقول الشيخ كاشف الغطاء: «كلّ ذي حسٍّ وشعورٍ يعلم أنّ المسلمين اليوم بأشدّ الحاجة إلى الإتفاق والتآلف وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف، وأن ينضمّ بعضهم إلى بعض كالبنيان المرصوص، ولا يدَعوا مجالاً لشيء ممّا يثير الشحناء والبغضاء والتّقاطع والعداء».

وقد بارك وأثنى على كلّ خطوة تدعو إلى الإتحاد والتّقريب. فمِمّا قاله في رسالةٍ له إلى دار التّقريب بالقاهرة، وجّهها إلى فضيلة العالم الجليل الشيخ محمود شلتوت: «لقد اطّلعت على كلمةٍ لكم في بعض الصحف كان فيها لله رضىً وللأُمّة صلاح، فحمدناه تعالى أنّه جعل في هذه الأمّة وفي هذا العصر مَن يجمع شمل الأمّة، ويوحّد الكلمة ويفهم حقيقة الدّين، ويزيد الإسلام لأهله بركةً وسلاماً. وما برحنا منذ خمسين عاماً نسعى جهدنا في التقريب بين المذاهب الإسلاميّة، وندعو إلى وحدة أهل التوحيد».

وعلى هذا النحو، طلب الشيخ من العلماء والمفكّرين والمثقّفين أن يبحثوا بحثاً موضوعيّاً بعيداً عن التراكمات وردود الفعل النفسيّة التي خلقتها الفُرقة المذهبيّة. وكذلك طلب منهم أن يعملوا بكلّ جدٍّ وإخلاصٍ على تهدئة الجوانب العاطفيّة المُتأجّجة في الوسط الشعبي، وأن يوضّحوا للأُمّة أنّ الخلافات ما هي إلّا اجتهاداتٌ اقتنع بها كلُّ مجتهدٍ من خلال اجتهاده، ذلك أنّ المجتهد قد يخطئ وقد يُصيب.

وقد التقى الإمام كاشف الغطاء علماء مصر والشام والمغرب العربي وإيران والهند وباكستان والحجاز والخليج، فقام بإقرار العلاقات الوديّة والأخويّة بين الجميع، وخفّف من النزاعات، وعرّف الأُمّة بحقيقة الإسلام بعيداً عن المنحى الطائفي والتعصُّب العِرقي أو المذهبي، وبذلك أوجد المناخ الإئتلافي بين مختلف الطبقات الإسلاميّة.

في رسالةٍ له إلى الشيخ محمّد بشير الإبراهيمي (باحث إسلامي من العراق) يقول: «ولا سعادة لهم [أي للمسلمين] إلّا بالاتّفاق وتوحيد الكلمة، ومن كلماتي المؤثّرة ما قلته في مؤتمر فلسطين قبل أكثر من عشرين سنة: إنّ الإسلام بُنِيَ على دعامتين: كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة. ولو أنّ المسلمين تدبّروا آيةً واحدة من كتاب الله العظيم، وهي قوله تعالى ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ الأنعام:٦٥، لو تدبّروها لكَفتهم حافزاً على

جمع الكلمة وعدم التأثُّر بالخلافات المذهبيّة والنّعرات الطائفيّة. أترى -يا أخي- يأتي الله بيوم للمُسلمين يجمع به كلمتهم ويُحقّق وحدتهم، فيكونوا شيعةً واحدة أو سُنّةً واحدة، أو السُنّة والشيعة متّفقة؟! إذ ذاك ما أتمنّاه وما هو على الله بعزيز».

كما يقول -أيضاً- في جملة كلام له في المؤتمر العالمي الإسلامي المنعقد في القُدس الشريفة سنة ١٩٣١م:

«إنّ من الغرائز التي استحكمت في نفوسنا وتوارثناها في قرونٍ بعيدة -وهي التي قضت علينا ولم نستطع إلى اليوم أن نقضي عليها- غريزة الشقاق والخلاف بيننا، خلافاً لِما أمرنا الله سبحانه به من الوحدة والألفة، وما عقده جلّ شأنه في أعناقنا من الأُخوّة والولاء: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ .. ﴾ التوبة:٧١، ومعلوم أنّ اختلاف الآراء وحريّة الفكر ناموسٌ من نواميس البشر، وفِطرةٌ فطر الله الناس عليها: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ الأحزاب:٦٢، ولكنّ الرزيّة وقاصمة الظّهر جعْلُ الإختلاف في الرأي سبباً للعداوة وآلة لقطع وشائج الأُخوّة وأواصر القربى، ولا ريب في أنّنا مُسلِمون موحّدون قبل كوننا سنيّين أو شيعيّين أو زيديّين أو شافعيّين، وهذه الطرائق المتأخّرة حدوثاً وزماناً ورتبةً لا تُوجب قطع رابطة الإسلام المُحكَمة فيما بيننا:

ما ذا التّقاطع في الإسلام بينكمُ وأنتُم – يا عباد الله – إخوانُ.

وقد كانت الصّحابة -رضوان الله عليهم- لا سيما بعد رحلة صاحب الرسالة، يختلِفون في كثير من الفروع، ولكلٍّ رأيه. وقد شاعت اختلافاتهم في مسائل مهمّة، كالمسح أو الغسل في الوضوء، وفي العول والتّعصيب في الميراث، وفي المتعة والمهر في النكاح، وهكذا إلى كثيرٍ من المسائل، ولكن ما أوجب شيء من ذلك صدعاً في وحدتهم ولا تفريقاً في كلِمتهم، بل كانوا يُصلُّون بصلاةٍ واحدةٍ، ويقتدي بعضهم ببعضٍ، ولا يطعن بعضهم في إيمان بعضٍ، ولذلك ملكوا في الإسلام شرق الأرض وغربها في نصفِ قرنٍ. فمن الواجب المُحتَّم على كُلّ مسلم -لا سيّما القادة والعلماء في مثل هذه الأوقات العصيبة- بذل الجهود إلى ضمّ المسلمين بعضهم إلى بعضٍ، ونشر الإلفة فيما بينهم، كما أراد الله سبحانه ورسوله، وأمر به كتابه.

وليس معنى تلك الأُخوّة أن تدعو السُّني أن يكون شيعيّاً أو الشيعي ليكون سُنيّاً، فإنّ هذا منافٍ للحكمة، ومصادم لسُنّة الله في خلقه، بل لكلٍّ رأيه وما يعتقده، ولكن معنى الدّعوة إلى الوحدة أن لا نجعل تلك الخلافات أداةً للتفرِقة، ومِعولاً للتمزيق، وسبباً للتشاحن والتطاحن والعداوة والبغضاء بين الأخوين ....

فيا أيّها الأعلام، ويا زُعماء الإسلام، الله الله في هذه القضيّة! فإنّها قضيّة جوهريّة، فليبذل كلّ واحدٍ منّا جهده في نشر هذه الروح الطيّبة، وبثّ تلك التعاليم المُقدَّسة، عسى أن يكوّن الله سبحانه من المسلمين -بفضل مساعيكم- أُمّةً تهزُّ العالم ثانياً كما هزّته أوّلاً، بل أقول ثانياً ولا أخشى ان أكون مغالياً، تُصلح العالم عوداً كما أصلحته بدءاً».

الوحدة وفضيلة الإختلاف

وقد بيّن الشيخ أنّ الإختلاف طبيعةٌ من طبائع هذا الكون، وأنّ اختلاف الآراء من أدقّ نواميسه وأقوى قاعدة لحفظ نظام العالم، وأنّ الوحدة التي ندب إليها القرآن الكريم ليست هي وحدة الآراء والمذاهب، فهذا أمر مستحيل بحسب الطّبيعة البشريّة، ومعطِّلٌ لأكمل المواهب، وأيّ موهبةٍ أشرف من موهبة حريّة الآراء وعدم الحجر على العقول وإخماد جذوة الذكاء والفهم والتنقيب؟!

كذلك بيّن الشيخ كاشف الغطاء أنّ المُراد بالوحدة المندوب إليها هي الوحدة الأخلاقيّة، والوحدة الإيمانيّة، وحدة الإخاء والمودّة؛ وذلك بأن لا يكون اختلاف الآراء سبباً للتباعد والتباغض والجفاء والعداء، بل يأخذ الأطراف بالمَثَل الأعلى والقُدوة الحسنة من خيار الصّحابة في صدر الإسلام، فقد كانوا -والحال على كثرة ما بينهم من الاختلاف في القضايا الفرعيّة والمسائل العلميّة- على أكثر ما يرام من الإخاء والصفاء، كأنّ الإسلام جسد وهم أعضاء ذلك الجسد المقدّس، تجمعهم روح إيمانية واحدة، هي روح المبدأ المُقدّس والتضحية بكلّ عزيز في سبيله.

وذكر أيضاً أنّ المسلمين لا يزالون يتعلّقون بحبال الآمال ويكتفون بالأقوال عن الأعمال، ويدورون على دوائر الظواهر والمظاهر من دون الحقائق والجواهر، يدورون على القشور، ولا يَصِلُون إلى اللُّب! على العكس ممّا كان عليه أسلافهم أهل الجدّ والنشاط، وأهل الصدق في العمل قبل القول، وفي العزائم قبل الحديث. تلك السّجايا الجبّارة التي أخذها عنهم الأغيار فسبقوا مُسلمي اليوم وكان السّبق لهم، وكانت للمسلمين الدّائرة عليهم، فأصبحت على المسلمين!

ويستحيل على المسلمين إذا بقوا على هذه الحال، أن تقوم لهم قائمة أو تجتمع لهم كلمة، أو تثبت لهم في المجتمع البشري دعامة، ولو ملأوا الصحف والطوامير وشحنوا أرجاء الارض وآفاق السماء بألفاظ الاتّحاد والوحدة وكلِّ ما يُشتقّ منها ويُرادِفها، بل ولو صاغوا سبائك الخطب منها بأساليب البلاغة، ونظّموا فيها عقود الجواهر والإبداع والبراعة.

كلّ ذلك لا يُجدي إذا لم يندفعوا نحو العمل الجدّي والحركة الجوهريّة، ويُحافِظوا على أخلاقهم وملكاتهم، ويكبحوا جماح أهوائهم ونفوسهم بإرسال العقل والرويّة والحنكة والحكمة، فيجد كلّ مسلم أنّ مصلحة أخيه المسلم هي مصلحة نفسه، ويسعى لها كما يسعى لمصالح ذاته، وذلك حيث ينزع الغِلّ من صدره والحقد من قلبه، وينظر كلّ من المسلمين إلى الآخر -مهما كان- نظرَ الإخاء لا نظر العداء، وبعين الرّضا لا بعين السّخط، وبلحاظ الرّحمة لا الغضب والنّقمة.

كما ذكر أنّ الإتحاد سجايا وصفات، وأعمال وملَكات، وأخلاق فاضلة، وحقائق راهنة، ونفوس متضامنة، وسجايا شريفة، وعواطف كريمة، والإتّحادُ هو أن يتبادل المسلمون المنافع ويشتركوا في الفوائد، ويأخذوا بموازين القسط وقوانين العدل. وليس معنى الوحدة في الأُمّة أن يهضم أحد الفريقين حقوق الآخر فيصمت، ولا من العدل أن يُقال للمهضوم إذا طالب بحقٍّ أو دعا الى عدلٍ: إنّك مُفرّقٌ أو مُشاغب، بل ينظر الآخرون إلى طلبه، فإن كان حقّاً نصروه، وإن كان حَيْفاً أرشدوه وأقنعوه، وإلّا جادلوه بالتي هي أحسن مُجادلة الحميم لحميمه والشّقيق لشقيقه، لا بالشتائم والسباب والمنابزة بالألقاب!

ولطالما دعا الشيخ كاشف الغطاء رضوان الله عليه إلى عقد المؤتمرات لتنمية فكرة الاتّحاد الجدّي، وأن يحذر المسلمون من حيتان الغرب وأفاعي الإستعمار، كما سمّاها، فإنهم من أخطر عوامل بذر التفرقة والشقاق بين أبناء الأُمّة الإسلاميّة.

دعاء العهد

مَنْ دَعَا إِلَى اللهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً بِهَذَا "العهد" كَانَ مِنْ أَنْصَارِ قَائِمِنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنْ مَاتَ قَبْلَهُ أَخْرَجَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ قَبْرِهِ وَأَعْطَاهُ اللهُ بِكُلِّ كَلِمَةٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ سَيِّئَةٍ.

الإمام الصّادق عليه السّلام

لا عقلانيّة ما بعد الحداثة

وهم الحريّة في المجتمع الصناعي

د. جاد مقدسي*

لقد أنتج المجتمع الصناعي الغربي إنساناً «ذا بُعد واحد»، يتوهّم بأنّه يعيش حرّاً، فيما هو يغرق في استلابٍ سحيقٍ لا قاع له، غافلاً عن أنّ تلبية مجتمعه لحاجاته المصطنعة ليست سوى وسيلةٍ لسلبه ذاتَه. فما أشبهه -حينها- بالعبد الذي يظنّ أنّه حرٌّ لمجرّد نيله حرّية اختيار سادته.

لعلّ أكثر ما امتاز به عصر التنوير في الغرب، أنّه وضع أمام مُفكّريه وفلاسفته خيار القطيعة الصارمة بين العقل والخرافة. في ذلك الوقت، كانت المجادلات الفكريّة والفلسفيّة مركوزة ضمن دائرة حسم هذه الثنائيّة لمصلحة العقل. وكانت الحجّة البالغة لدى هؤلاء، أنّ حاكميّة العقل هي الشرط التاريخي الذي لا مناصّ منه لإطلاق حركة العلم والتصنيع ودورة رأس المال.

التسويغ الثقافي والإيديولوجي الذي تقاطعت حوله أفكار التنويريّين، هو قلْب ما كان شائعاً في مجتمعات القرون الوسطى، وتحويله إلى نصابٍ آخر. فقد جاءت الحصيلة المعرفيّة للحداثة، لتبيّن أنّ الإنسان هو مركز الكون، بعدما احتلّته الخرافة والميتافيزيقا الدينيّة. ولكي نستظهر الصورة المُجْملة على حقيقتها، لنا أن ننطلق من وقائع القرن الثامن عشر في أوروبا، وهو القرن المعروف بعصر النهوض في الثقافة الفرنسيّة، وعصر التنوير في نظيرتها الإنكليزيّة. على أنّ اتجاه هذا العصر نحو العلم، ومن خلال الاعتماد الصارم على العقل في معرفة أسرار الكون الفيزيائي، وقوانين التاريخ السياسي والاجتماعي، هو من مفضيات الثورة العلميّة في القرن السابع عشر. ذلك ما ظهر مع «نيوتن» في ما عُرِف بالتفسير العقلاني العلمي للعالم. وهو الأمر الذي حفّز الفكر الاجتماعي على إطلاق طموحه لِيُحَقّق ما حقّقه هذا الفيزيائي في ميدان الطبيعة.

لكنّ الثّقة بقدرة العقل على فهم قوانين الكون الطبيعي، تلازمت مع ثقة موازية بقدرته على فهم حركة التاريخ، وقوانين التغيير التي تحكمها. وعلى ذلك، يمكننا أن نلحظ كيف كان هذا العصر، هو نفسه عصر الفكر الذي انبثقت منه الإيديولوجيّة الليبراليّة التي شرَّع لها «مونتسكيو» على صعيد الفكر السياسي. وهذا الأخير -على ما نعرف- هو المشرّع الذي يُنظر إليه بوصفه والد الإيديولوجيا العقلانيّة الليبراليّة في بُعدَيْها السياسي والدستوري. بل ثمّة من مضى إلى أنّه تخطّى العلاّمة ابن خلدون باقتراحه النظام اللازم لقوننة الحريّة، والحؤول في الآن عينه، دون استشراء الاستبداد. وهذا الاقتراح هو عين المبدأ القائل بفصل السلطات، باعتبار أنّ توحيد مركز السلطة سوف يؤدّي بالضرورة إلى واحديّة المنظومة السياسيّة الحاكِمة.

لم يدُم الانخطاف طويلاً بدهشة التنوير، فالعقل الذي اتّخذ سبيله لرعاية النظام العام للدولة والمجتمع، سوف يتّخذ سبيلاً معاكساً بعد وقتٍ قصير. لقد بانَ بوضوح، ولا سيّما بعد ظهور الدولة القوميّة، وسعيها إلى تمديد سيادتها خارج أرضها، أنّ اللّاعقلانيّة في الغرب الحديث، طفقت تحتلُّ المواقع الأساسيّة في عقل الدولة والمجتمع. ففي السنين الأولى للقرن العشرين، وتحديداً في العام ١٩٢٠، عمّت التشاؤميّة في حقول الفكر والثقافة والفلسفة، لتعكس ظاهرة معرفيّة مفارقة في الغرب الأوروبي. ففيما كانت النُّخب في العالم الإسلامي مأخوذةً بسحر الحداثة وأنوارها، جاءتها عواصف مفاجئة من جغرافيّات الحداثة نفسها لتهتزّ معها طائفة وازنة من العناوين، التي دأبت على الأخذ بها كسبيل هادٍ لإنجاز حداثتها. لقد جاءت عواصف النقد لتُشير إلى رجوع العقل في الغرب إلى سيرته الغابرة، ثمّ ليستأنف مأزقه على نشأة أخرى. فلئن كانت الخرافة قد تراجعت أمام سطوة الحداثة، فإنّ هذه الأخيرة ستتعرَّض لضرباتٍ شديدة الإيلام من جانب تيّارات فلسفيّة عبّرت عن نفسها بما يشبه الاحتجاج العبثي على باب الحداثة المسدود.

نستطيع أن نرى إلى هذا التّحوّل، من خلال ما قدّمه نقّاد التنوير من بيانات متشائمة. فلمّا أعلن هؤلاء أنّ الحضارة الغربيّة انبنت على استراتيجيّة متفسّخة، فقد ابتغوا بذلك الإشهار الصريح على أنّ تلك الحضارة آلت إلى سحق غرائز الإنسان الحيويّة، من خلال السيطرة على الطبيعة، وعلى الذّات، وعلى الآخرين.

* أكاديمي وباحث عربي - باريس

قبل بضعة عقود، كان للمفكّر المعروف «هربرت ماركوز» رؤية ثاقبة في تشكيل صورة دراميّة للمجتمع الصناعي الغربي. لقد تحدّث يومها عن مقولة الإنسان ذي البعد الواحد الذي أنتجه مجتمعُهُ ذو البعد الواحد. وهو لاحظ أنّ الإنسان في هذا المجتمع فَقَدَ «حقّه» في الحياة بمجرّد أن سلّم للمجتمع مقاليد أمره، إذ توهّم بأنّه يعيش الحريّة فيما هو يغرق في استلاب سحيق لا قاع له. وفي اعتقاده، أنّه إذا كان المجتمع يحرص على تلبية هذه الحاجات المُصطنعة، فليس ذلك لأنها شرط استمراره ونموّ انتاجيّته فحسب، بل أيضاً لأنّها خير وسيلة لاستيلاد الإنسان المسلوب، ذاك القابل بالمجتمع «الواحدي» والمُتكيّف معه. الإنسان ذو البُعد الواحد بهذه المعايير، هو الذي استغنى عن الحريّة بوهم الحريّة. فلو ظنّ (هذا الإنسان) أنّه حرٌّ لُمجرَّد أنّه يستطيع اختيار حاجاته من بين تشكيلة كبيرة من البضائع والخدمات، فما أشبهُهُ من هذه الزاوية، بالعبد الذي يتوهّم أنّه حرٌّ لُمجرّد نيله حريّة اختيار سادته. (...) والمجتمع الصناعي –برأي ماركوز– لم يُزيّف حاجات الإنسان الماديّة فحسب، بل زيّف أيضاً حاجاته الفكريّة، أي عقله وفكره بالذّات. ذاك أنّ العقل الذي يتأمّل ويتفكّر هو في واقع حاله، عدوٌّ لدود لمجتمع السيطرة، لأنّه يمثل قوّة العقل النقديّة، السالبة، التي تتحرّك دوماً باتّجاه ما يجب أن يكون، لا باتّجاه ما هو كائن. وهذه القوّة هي في خاتمة المطاف قوّة إيديولوجيّة، راحت سُلطة الحداثة تُوظّفها لخدمة إمبرياليّتها الصاعدة. ولئن كان المجتمع الليبرالي، ثمّ المابعد ليبرالي، قد أحاط الإيديولوجيا بالإزدراء والتحقير باسم عقلانيّته التكنولوجيّة، أو بذريعة النظر إلى الحقائق بزعم أنّها تتبدّى له كضوء الشمس، فذلك لا يعني أنّه لم تعُد هناك إيديولوجيا، أو أنّها أوشكت على أن تواجه موتها المحتوم...

لدى نقّاد الحداثة، ولدينا أيضاً، أنّ المدنيّة التقنيّة وهي في ذروة جنونها، باتت هي الإيديولوجيا بعينها. ولقد تبيّن من خلال ما شهدته أطوار القرن العشرين المُنصرم، أنّ أبرز وجوهها من هذه الزاوية، هو المذهب العملي في الفيزياء، والمذهب السلوكي في العلوم الاجتماعيّة، وصولاً إلى المذهب البراغماتي في حقول الإستراتيجيّات السياسيّة والاقتصاديّة. وإلى ذلك على الجملة، سوف نجد أنّ السِمة المشتركة الأساسيّة لتلك المذاهب هي الالتزام بالواقع المُعطَى، ونبذ المفاهيم الشموليّة أو النقديّة التي تُهدّد بالكشف عن بُعد آخر لذلك الواقع.

أمّا الصورة الآن، فلا تُفْصِح إلّا عن جرعة يسيرة ممّا منحه لنا ميراثُ العقل. ولنا أنْ نقول إنّ منطق التحوّلات الذي افتتحته الحداثة الغربيّة منذ بداية القرن العشرين وإلى بداية زمن العولمة، لم يُسفِر إلّا عن إدخال الإنسان في لُجّة غير آمنة. وأمّا كارثة التحرُّر التي تحدّث عنها نقّاد الحداثة المعاصرة، خصوصاً بعد أفول البريق الإيديولوجي للشيوعيّة، فهي تلك التي راحت تدفع العالم إلى فضاء اللاّعقلانيّة بوسائط شديدة العقلانيّة. وهنا تكمُن على نحو خاص، قوّة المجتمع العولمي ذي البُعد الواحد: أي الطابع العقلاني للاعقلانيّته. بحيث ذهب هذا النوع من «المجتمع العولمي» إلى تسويق ما عُرف بـ«الفكر الإيجابي» .. الفِكر الذي يُمَهّد لسيرورة مديدة من الامتثال والإذعان وعدم الاحتجاج. ذلك بأنّ القبول بمثل هذا النوع من «الإيجابيّة» هو قبول قسري لا بحكم الإرهاب، وإنّما بفعل سلطة المجتمع التكنو-إلكتروني وفعاليّته الساحقة.

قد يتساءل واحدنا عن مبرّرٍ لمثل هذه المُطارحة، في هذه الحقبة بالذّات. لكن ثمّة ما يُشبه الإجماع غير المُعلن في المجتمعات الغربيّة، وبين نُخبنا على الأخصّ، على راهنيّة مراجعة ما يُسمّى بالأُطروحة العقلانيّة. فالكلام على المآل اللاّعقلاني لسلوك الحداثة في طورها المعاصر، لا يتعلّق فحسب، بالحيّز السياسي لهذا السلوك، بل هو مُتّصل بالدّرجة الأولى، بما بلغه مسار التصدُّع الذي يحكُم منظومات التواصُل داخل منوّعات الحضارة البشريّة المُعاصرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا

الفرقان ٤٣